مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على الرسول المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.. فنحن حينما نتتبع حركات الإصلاح على مر التاريخ نجدها جميعا قد قامت على أساسين: الأساس الأول منها نظرى، وهو يمثل المرحلة التى يتبلور فيها الفكر ليصبح نظرية إصلاح تتناسب وظروف الأمة.

وطبيعى أن يسبق هذه المرحلة صحوة شعور بالفساد باعتبار أن الفساد لا يولد الدافعية نحو الإصلاح، وإنما الشعور بالفساد هو الذى يولد الدافعية نحو الإصلاح.

أما الأساس الثانى فهو تنفيذى، وهو يمثل المرحلة التى توضع فيها النظرية موضع التنفيذ. وطبيعى أن يقود الأمة فى تلك المرحلة الهامة أسوة حسنة تكون بمثابة المثل الأعلى للأمة. وهكذا يتوجه دوران عجلة الأمة فى محور الإصلاح.

والدين الإسلامى رغم أنه دعوة سماوية، ورغم أنه لكل البشر فإنه أيضا لم يخرج عن تلك القاعدة السابقة باعتباره أعظم حركة إصلاح، فنجده يقوم أيضا على أساسين: القرآن الكريم، وهو الذى يحمل بين دفتيه نظرية الإسلام، والسنة الشريفة، وهى الأسوة الحسنة التنفيذية. والمثل الأعلى فى كيفية التنفيذ فإذا كان القرآن الكريم قد أمرنا بالصلاة، فإنه لم يوضح لنا كيفية الصلاة وترك هذا الأمر للسنة الشريفة لذلك يقول رسول الله ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ويقول: «خذوا مناسككم عنى» وهكذا كان القرآن الكريم أصلا، والسنة الشريفة بيانا.

وينقسم القرآن الكريم من الناحية الموضوعية إلى عقيدة وشريعة، والعقيدة هى كل ما يتعلق بالإيمان من آيات كريمة. أما الشريعة فهى أحكام الدين، وتتضمن كل الأوامر والنواهى التى يجب أن توضع موضع التنفيذ. ولا شك أن العقيدة أصل تبنى عليه الشريعة فلا وجود لها بدونها، فمن أهدر العقيدة فليس بمسلم عند الله.

وإذا كانت العقيدة تقوم على الإيمان بالله عز وجل فإن مسألة وجود الله فى القرآن الكريم مسألة وعى أو عقل قبل كل شىء. لذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان: الآية: ٢٥].

وإذا كانت البشرية قد اتفقت أنه من المحال أن تكون هناك صنعة لا صانع لها. فإن الذى يصعب إدراكه هو: هل الصانع له شريك فى صنعته؟ لذلك لم تترك العناية الإلهية للعقل البشرى وحده مهمة الاهتداء إلى الحقيقة، فكان من رحمة الله سبحانه بالناس أنه أرسل الرسل، وأيدهم بالمعجزات لتكون دليل الإيمان الذى يهتدون به.

ولما كان القرآن الكريم هو معجزة الرسالة الأخيرة، فهو المعجزة الصالحة لكل زمان ومكان إلى يوم الدين.

ونحن حينما نتتبع قضية التوحيد فى القرآن الكريم نجدها القضية المهيمنة على القرآن الكريم كله، كما يكشف لنا القرآن أن مفتاح تلك القضية هو العلم حيث يقول سبحانه: «اعلم أنه لا إله إلا الله» أى أن الإيمان بوحدانية الله يحتاج إلى تعليم وأن هذا التعليم يجب أن يكون من الله عز وجل وربما هنا نستطيع أن ندرك السبب الذى من أجله كانت أول كلمة تنزل من القرآن الكريم هى (اقرأ).

أما الشريعة فهى أحكام الدين، وهى الأوامر والنواهى التى تضمنت قوانين الصيانة والإصلاح فالخالق سبحانه هو الأعلم بصيانة صنعته وإصلاحها. الأمر الذى جعل من الدين ضرورة، فإنه فى الوقت نفسه حرص ألا يتعارض الفكر والدين، أو أن يحجز الدين على العقل البشري. لأن الحجر على العقل يفقد الأمة حماسها نحو العمل الإيجابى. لهذا حرص القرآن الكريم أن يوضح كيف أدى منهج فرعون المستبد: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [سورة غافر: الآية: ٢٩] إلى انتشار الفساد.

لذلك حرص الإسلام أن يجعل التفكير فريضة. وأن يترك مساحة للمشاركة الفكرية. وحرية الحركة حتى لا يكون الدين أفيون الأمة. فتضمنت الأوامر ما لا تدركه البشرية من منافع، كما تضمنت النواهى ما لا تدركه البشرية من أضرار. وما عدا ذلك فقد تركته الشريعة لظروف كل عصر وكل إنسان. وعموما فقد ثبت أن الالتزام بشريعة الله عز وجل يؤدى نفسيا إلى الشعور بالرضا. وأن عدم الالتزام بها يؤدى إلى الشعور بالحرمان. الذى قد يؤدى إلى الانتحار.

وإذا كانت هذه الأصول التى قام عليها الدين الإسلامى، فإن تفعيل الدين يقوم على العمل بالأركان الخمس شهادة أن لا إله إلا الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. وهكذا ربط الإسلام بين الإيمان والعمل، حتى إن رسول الله ﷺ كان يشترط على من شرح الله صدره للإسلام أن يجهر

فى شجاعة بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهذا فى حد ذاته عمل عبر به المسلم عن إيمانه، وافتتح به مرحلة جديدة من حياته العملية فى الإسلام.

وإذا كانت السياسة هى: فن الحكم، والقاعدة التى يبنى عليها الإنسان الصالح، وذلك فى ضوء عنصر المكان، ومستوى التعليم، والتركيب الاجتماعى للسكان، والقدرات الاقتصادية.

وإذا كان لكل عنصر من هذه العناصر أهميته الخاصة، والتى تنعكس على سياسة الأمة، فإن تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض، يمثل المحرك الأصيل فى تطور الدولة، وبالرغم من خطورة كل عنصر من هذه العناصر منفردا، فإن عنصر الدين أثبتت تجربة الإسلام أنه أهمها جميعا فى إحداث التطور الذى تنتقل به الأمة إلى الارتقاء الذى يتناسب مع العصر.

وإذا كان الدين فى أوربا العصور الوسطى، فشل فى أن ينهض بأمة أوربا بما يتناسب مع نهضة الأمة الإسلامية فى تلك الفترة، والتى عرف فيها العالم لأول مرة (خير أمة أخرجت للناس) فإن المشكلة لم تكن فى الدين المسيحى، وإنما كانت فى سطوة رجال الدين، وسيطرتهم على الحكم بعيدا عن قواعد الدين الصحيح حتى إنهم استخفوا بعقول أمتهم فباعوا قراريط الجنة بصكوك الغفران.

وإذا كان الزمان دار دورته، وتطورت الأمة الأوربية فى العصر الحديث بما يتناسب مع عصر النهضة، وتخلفت الأمة الإسلامية، فإن فصل الدين عن السياسة فى أوربا، لم يكن هو السبب، وإنما السبب هو إلغاء هيمنة رجال الدين عن الدولة، أما فى العالم الإسلامي، فإن تخلفهم يرجع إلى بعدهم عن الدين الصحيح، وجمود علماء الدين بسبب التراجع العلمى، وانتشار الأمية.

وكما أننا لا نستطيع أن نهمل دور قادة أوربا فى تلك النهضة، فإننا لا نغض الطرف عن قادة العالم الإسلامى فى هذا التراجع الذى أصاب الأمة، حتى أفقدها القدرة على اللحاق بركب التقدم فى العصر الحديث.

ولما كان التاريخ علم تحقيق وتدقيق، والنبوغ فيه يحتاج إلى درجة من الوعى بقوانين النقد والحكمة، ولما كان التاريخ الإسلامى على وجه الخصوص يحتاج إلى درجة عالية من ذلك الوعى التاريخى لأربعة أسباب رئيسية:

أولاً: أننا كثيرا ما نمر بنصوص ترويها كتب التاريخ الإسلامى، وهى تتعارض مع البديهى من تعاليم الإسلام، وتارة أخرى تروى لنا فى سير الصحابة ما لا يتفق مع خلقهم الرفيع، وما لا يتفق أيضا مع مركزهم الدينى، ولا يليق بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر الذى يفرض علينا أن نتعامل مع مثل تلك النصوص بالحذر اللازم، والدقة المطلوبة.

ثانيا: وهو أن أصول ووثائق التاريخ الإسلامى معظمها مفقود بدءًا من ابن إسحق، وابن هشام مرورا بالطبرى وابن مسكويه حتى مؤرخى الدولة المملوكية وغيرها من الدول الإسلامية، وما وجد من تلك الوثائق فأماكن وجوده ليست عادة هى دور الوثائق والأرشيفات، وإنما المحاكم والمتاحف ووزارات الأوقاف ودواوينها فى العالم الإسلامى، بل وفى المنازل فى أحيان كثيرة كما هو الحال فى بلاد المغرب العربى.

ثالثا: وهو الروايات المغرضة من بعض كتب التاريخ لأهداف سياسية، أو مصالح شخصية، كما أنه لا يفوتنا أنه منذ أن وجد الإسلام ولد معه خصومه، وعاش يعانى من كيدهم صنوفا من الفتن وألوانا من الافتراءات استطاعوا أن يدسوها فى كتب التاريخ لينالوا من الإسلام، وليفقدوا أعلامه البارزين المنزلة التى ينبغى أن تكون لهم حتى يفقد شباب المسلمين القدوة، فيختل توازنهم.

رابعا: فهو النقل دون تحقيق أو تدقيق، وفى ذلك يقول ابن خلدون: "إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة، فضلوا عن الحق، وتاهوا ببيداء الوهم والغلط".

ولما كان هذا الكتاب يعرض للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين، فقد حرصت أن أتوقف عند كل قضية تحتاج مناقشة، فنحن نعلم أن أعداء الإسلام بعد أن وجدوا أنفسهم لم ينالوا من الإسلام رغم نجاحهم فى قتل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، ثم من بعده عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنه – رأوا أن يوجهوا حربتهم إلى الصف الإسلامى حتى استطاعوا أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين، ولم يكن انقسام المسلمين إلى معسكرين أيام الفتنة الكبرى لتناقض المصالح بين معسكرين، أو لصراع على السلطة، لأنه كان على رأس

كل من المعسكرين عدد من العشرة المبشرين بالجنة، الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وإنما كان بفعل حاقد خسيس وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[سورة البقرة: الآية ٢١٧]

وأخيرا، فإن هذا الكتاب إذا كان يتعرض لتاريخ أربعة فقط من الخلفاء الراشدين هم: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى – رضى الله عنهم جميعا – أما الخليفة معاوية بن أبى سفيان، والذى هو خامس الخلفاء الراشدين، إلا أن تحول نظام الحكم بعده إلى ملك وراثى، جعل المؤرخين يضعونه على رأس دولة جديدة، هى الدولة الأموية.

والله سبحانه ولى التوفيق

دكتورمحمد عادل عبد العزيز
مصر الجديدة فى ٢٠١٣/٦/٢٢م